

دور الروايات في تفسير القرآن عند العلامة الطباطبائي

لقد ذهب بعض العلماء إلى القول بمحورية القرآن الكريم وحاكميته على السنة، وبالخصوص في تفسير القرآن الكريم، ومن أبرز رموز هذا الاتجاه صاحب الميزان العلامة الطباطبائي، الذي شدد على محورية القرآن وأهميته في تفسير القرآن من خلال اتباعه لمنهج (تفسير القرآن بالقرآن)، إلا أنه مع ذلك لم يترك البحث الروائي ويسقطه عن الاعتبار كما توهم بعض مخالفيه كالشيخ محمد السند، الذي ادعى أن منهج العلامة الطباطبائي ينسجم عملاً مع مقولة "حسبنا كتاب الله"، وذلك للإشارة إلى كونه يُسقط السنة عن الاعتبار، ولقد تكرر ذلك منه في أكثر من موطن ومورد، رغم أن من يُراجع تراث العلامة الطباطبائي يرى وبكل وضوح عدم صحة هذا الأمر على الإطلاق، وإنما كل ما في الأمر أنه يُشدد على كون القرآن الكريم هو المحور والأصل في تفسير القرآن الكريم وفي فهم المعارف الدينية.

من هنا سوف أسلط الضوء على هذه النقطة بالتحديد، وهي: (هل كان العلامة الطباطبائي يسير عملاً على منهج "حسبنا كتاب الله" كما ذكر الشيخ السند أم لا؟!)، علماً بأنني لن أتطرق لتفاصيل ما ذكره الشيخ السند من نقد لمنهج العلامة الطباطبائي، ولن استعرض الأدلة التي ساقها لذلك أيضاً، وإنما سوف أتحدث عن أصل المسألة فقط، واعتذر من القارئ الكريم بسبب ما سوف يراه من طول بعض الاقتباسات التي قد تكون غير محبذة عادةً في الأبحاث العلمية، غير أنني اضطررت لهذا الأمر، لأن هدفي من تناول هذا الموضوع هو إثبات بطلان دعوى الشيخ السند بكل هدوء من كلمات العلامة الطباطبائي نفسه.

هذا واسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل ما قدمته خالصاً لوجهه الكريم، وأن تعم الفائدة به عموم المؤمنين، وإن كنت أعلم بأنني لم أستوفِ البحث حقه ولم أعالج كل ما ينبغي معالجته، فمثل هذا الموضوع كبير جداً وبحاجة لدراسة علمية مفصلة، نسأل الله سبحانه وتعالى أن نوفق لها في المستقبل.

العلامة الطباطبائي وتفسير القرآن بالقرآن

يعتمد العلامة الطباطبائي منهج تفسير القرآن بالقرآن [3]، والمراد بهذا المنهج هو: "أن تكون النصوص القرآنية بعضها مفسراً للبعض، وإذا ما عرفنا أن التفسير هو الكشف عن معاني ومرادات النص القرآني فإنه في ضوء هذا المنهج يكون النص القرآني المراد كشف معانيه مُنكشافاً ومُفسراً - بصيغة اسم المفعول - بنص قرآني آخر" [4]. وهذا المنهج - منهج تفسير القرآن بالقرآن - يرى المعتقدين به بأنه "هو

المنهج الأكمل والأتم الذي ينبغي أن يُسلك في تفسير القرآن، بل لا طريق أمامنا سوى الالتزام به فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً، ويصدق بعضه بعضاً، ويشهد بعضه على بعض" [5].

ولقد أكد العلامة الطباطبائي على اعتماده هذا المنهج في أكثر من مورد من كلامه منها ما يلي:

المورد الأول: في مقدمة تفسير الميزان بعد أن استعرض بعض المناهج التي سلكها المفسرون وقدم النقد لها نجده يبين أن فهم حقائق القرآن وتشخيص مقاصده العالية يتم على أحد وجهين: "أحدهما: أن نبحث بحثاً علمياً أو فلسفياً أو غير ذلك عن مسألة من المسائل التي تتعرض له الآية حتى نقف على الحق في المسألة، ثم نأتي بالآية ونحملها عليه، وهذه طريقة يرتضيها البحث النظري، غير أن القرآن لا يرتضيها كما عرفت، وثانيهما: أن نفسر القرآن بالقرآن ونستوضح معنى الآية من نظيرتها بالتدبير المندوب إليه في نفس القرآن، ونشخص المصاديق ونتعرفها بالخواص التي تعطىها الآيات، كما قال تعالى: (إنا أنزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) الآية، وحاشا أن يكون القرآن تبياناً لكل شيء ولا يكون تبياناً لنفسه، وقال تعالى: (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) الآية، وقال تعالى: (إنا أنزلنا إليك نوراً مبيناً) الآية، وكيف يكون القرآن هدىً وبينةً وفرقاناً ونوراً مبيناً للناس في جميع ما يحتاجون ولا يكفيهم في احتياجهم إليه وهو أشد الاحتياج! وقال تعالى: (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) الآية، وأي جهاد أعظم من بذل الجهد في فهم كتابه! وأي سبيل أهدى إليه من القرآن!" [6].

المورد الثاني: في تفسيره لقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) [7]، حيث يقول في ختام البحث: "والمحصل: أن المنهي عنه إنما هو الاستقلال في تفسير القرآن واعتماد المفسر على نفسه من غير رجوع إلى غيره، ولازمه وجوب الاستمداد من الغير بالرجوع إليه، وهنا الغير لا محالة أما هو الكتاب أو السنة، وكونه هو السنة ينافي القرآن ونفس السنة الآمرة بالرجوع إليه وعرض الأخبار عليه، فلا يبقى للرجوع إليه والاستمداد منه في تفسير القرآن إلا نفس القرآن" [8].

فهذه العبارات من العلامة الطباطبائي -ويوجد غيرها أيضاً- تدل على كونه يتبنى كون القرآن الكريم هو المصدر الوحيد لاستنباط المعارف الدينية، مما جعل البعض يتوهم بأن العلامة الطباطبائي يعتمد

منهج "حسبنا كتاب الله"، بمعنى أنه يُلغى السنة عن الاعتبار، ولكن سيأتي ما يثبت خلاف ذلك من كلمات العلامة الطباطبائي نفسه.

وقد يتساءل البعض قائلاً: من أين أتى العلامة الطباطبائي بهذا المنهج؟ وبالرجوع إلى تصريحاته نجده يؤكد أنه أخذ هذا المنهج من السنة المتمثلة في النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، فهم الذين أُرشدونا إليه، حيث قال: "ثم إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي علمه القرآن وجعله معلماً لكتابه... وعترته وأهل بيته الذين أقامهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذا المقام... وقد كانت طريقتهم في التعليم والتفسير هذه الطريقة بعينها على ما وصل إلينا من أخبارهم في التفسير"[9]، بل إن العلامة الطباطبائي يؤكد في مورد آخر "على أن جماً غفيراً من الروايات التفسيرية الواردة عنهم عليهم السلام مشتملة على الاستدلال بآية على آية، والاستشهاد بمعنى على معنى، ولا يستقيم ذلك إلا بكون المعنى مما يمكن أن يناله المخاطب ويستقل به ذهنه لوروده من طريقه المعين له"[10].

نماذج تاريخية عن تفسير القرآن بالقرآن

يعتبر تفسير القرآن بالقرآن من أقدم طرق التفسير، وتعود جذوره إلى زمن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة (ع) كما مر بنا في السابق من كلام العلامة الطباطبائي، وفيما يلي بعض النماذج الروائية على هذه الطريقة[11]:

1. سئل الرسول (ص) عن معنى "الظلم" في الآية الكريمة: (وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ)[12]، فأجاب (ص) وبالاستناد إلى الآية: "إن الشرك لظلم عظيم"[13] بأن المقصود بالظلم في الآية الأولى هو الشرك في الآية الثانية.

2. استنتج الإمام علي (ع) من خلال الآيتين (وَفِصَالُهُ فِي عَمَيْنِ)[14] - (وَوَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا)[15] بأن أقل مدة للحمل هي ستة أشهر، فإذا كانت مدة الرضاع سنتين ومدة الحمل والرضاع معاً ثلاثين شهراً، ووضعنا الآيتين جنباً إلى جنب، تكون النتيجة واضحة، وهي أن أقل مدة للحمل ستة أشهر، وهذا نوع من تفسير القرآن بالقرآن.

3. بين الإمام الباقر (ع) أن المقصود من الآية: (فَلَا يَسْـَٔلَايْكُمُ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ)[16] هو القصر لصلاة المسافر، وذلك استناداً إلى الآية: (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ

يَطَّوِّفَ بِهِمْ مَلَا) [17]، وأثبت وجوب القصر عن هذا الطريق.

وهذه الطريقة - تفسير القرآن بالقرآن- ليست مقتصرة على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام، إذ ينقل الدكتور الذهبي في كتابه الشهير (التفسير والمفسرون) أن الصحابة كانوا يستخدمون هذه الطريقة في تفسيرهم أيضاً [18].

كذلك مارس مفسرو الشيعة قبل العلامة الطباطبائي هذا المنهج مع ظهور بعض التفاسير، مثل (التبيان) و(مجمع البيان)، وكذلك الأمر بالنسبة لمفسرو أهل السنة [19]، فالأمر ليس منحصر في العلامة الطباطبائي فقط، وهذا لا يعني عدم وجود اختلافات في بعض التفاصيل والجزئيات، وإنما مقصودي أصل المنهج وهو تفسير القرآن بالقرآن.

نقد منهج العلامة الطباطبائي عند الشيخ محمد السند

من خلال كلمات العلامة الطباطبائي السابقة يتضح بأنه يرى أن تفسير القرآن الكريم لا بد أن يكون من خلال القرآن نفسه، وهذا ما جعل البعض كالشيخ محمد السند يتهمه عملاً بإسقاط السنة عن الاعتبار وبالتمسك بمقولة "حسبنا كتاب الله"، ولقد تكرر منه مضمون هذا الكلام في أكثر من مورد من كتبه ودروسه، وسوف أعرض بعضاً مما وقفت عليه فيما يلي:

المورد الأول: في دروسه في بحث خارج علم الأصول بعد أن تحدث عن نظرية العلامة الطباطبائي في تفسير القرآن بالقرآن ومناشئ هذه النظرية وآثارها والأدلة التي اعتمدها للوصول إليها قال الشيخ محمد السند: "ولكن مع الاحترام للعلامة الطباطبائي فإن هذا المنهج كما مر بنا نتيجته ومقتضاه عملاً "حسبنا كتاب الله" وقد نحى هذا المنحى بعض تلامذة العلامة الطباطبائي" [20].

المورد الثاني: في كتابه (سند الأصول)، حيث ذكر في مبحث حجية ظواهر الكتاب عدة نظريات، منها: "النظرية الأولى: [المنسوبة إلى الأخباريين] النافية لحجّية ظواهر الكتاب، ويمكن أن نعبر عنه بنظرية «حسبنا السنة». النظرية الثانية: [لصاحب تفسير الميزان وأتباعه] وهي معاكسة للأولى تماماً ويمكن التعبير عنها بنظرية «حسبنا كتاب الله» في فهمه ما لا لا ابتداءً" [21].

المورد الثالث: في كتاب (الإمامة الإلهية) تحت عنوان (النظريات في تفسير المعية بين القرآن والعترة) يقول: "النظرية الأولى: حسبنا كتاب الله، وأنه هاد، ولذلك ورد الأمر في تمييز الحجة عن

اللاحة من الروايات في عرضها على الكتاب الكريم، وهذا مؤيد بانه المعجزة الخالدة الباقية الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه، ودور اهل البيت هو كونهم مقدمة للقرآن الذي عليه المدار فإذا وصل واصل إلى تلك المفادات بأي طريقة كانت فيها ونعمت فيكون الال طريق ليس إلا، ويستدل لهذا البيان بقوله تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس)، و(يعلمهم الكتاب والحكمة) فدوره دور المعلم والبدال على طريق التعليم والأصل هو القرآن، ويعضده ما ورد من تحدي المشركين بأن يؤتوا بمثل هذا القرآن فلو كان مغلقاً مقفلاً لما كان هناك معنى للتحدي، بل إن حجة قوله صلى الله عليه وآله مستمدة من معجزة القرآن وحجته [22]. ومن الواضح بأن كلامه هنا ينطبق أو لنقل أنه على الأقل يشمل العلامة الطباطبائي، وإن كان لم يذكر ذلك بصراحة كما هو الحال في المورد السابقين.

المورد الرابع: في دروسه في تفسير القرآن الكريم في الدرس رقم (7) يقول: "معية الثقليين هذه معناها يعني احد الخرائط التي ترسم لنا العلاقة بين الثقليين معية الثقليين هي هذا لا حسبنا كتاب الله لا.. ولا نقول حسبنا السنة الشريفة للنبي واهل بيته بل لابد منهما معاً فلا الكتاب مفوضون نحن نفرد به ولا نحن مقطوعون عنه منأون عنه بل هما معا قرينية واقتران معي فبالتالي لا نستطيع ان نستفرد ونتفرد بالقران كما لسنا في نأى وابتعاد عن القران بل لابد منهما معاً" [23]. كذلك هنا أيضاً لم يشر للعلامة الطباطبائي بالاسم.

المورد الخامس: في كتابه (إسلام معية الثقليين) [24]، حيث يقول: "إن شعار "إسلام القرآن" أو "إسلام المصحف" ينطوي على مغالطة نظير المغالطة التي ينطوي عليها شعار "حسبنا كتاب الله" فإن "إسلام القرآن" أو "إسلام المصحف" حسب هذا الزعم هو الإسلام الذي يستنبطه أي شخص بحسب قدرته وفهمه البشري استعانة بقدرته المحدودة لفهم المصحف... [25].

ويقول أيضاً: "ومن ثم كان شعار "حسبنا كتاب الله" شعار خداع وشعار تلبيس وتدليس وتحايل، فهل ينفك الكتاب عن أهل الكتاب المطهرين الذين يمسونه...؟ وهذا هو نظير دعوى تفسير القرآن بالقرآن، فإنه كما ترى ليس الا تفسير القرآن بجهد بشري طني قد يخطأ وقد يصيب، استعانة بالقرآن التي يقف عليها المجتهد بحدود فهمه البشري من القرآن، لا أن القرآن الوحي ينطق ويفسر المصحف الصامت بنفسه" [26].

لاحظوا هنا أن الشيخ السند جعل مقولة "حسبنا كتاب الله" نظير دعوى تفسير القرآن بالقرآن!!

وفي مورد آخر من الكتاب نفسه يقول: "ولا يخفى على القارئ الكريم أن هذا هو الحاصل في يومنا هذا، وإن المنادي بـ "إسلام القرآن" مقابل "إسلام الحديث" يريد المروق من سنة المعصومين عليهم السلام بذريعة المصحف، وهو لا يعمل بالمصحف الأمر بالتمسك بالعترة قرينة معية للقرآن" [27]. ولا شك أن كلامه

في هذا المورد ينطبق أيضاً على منهج العلامة الطباطبائي، لأنه جعل مقولة "حسبنا كتاب الله" نظير دعوى تفسير القرآن بالقرآن!!

وملاحظة أولية على كلام الشيخ السند ألاحظ أنه لم يبين أن الكلام هو حول السنة المحكية والمنقولة وليس السنة الواقعية [28]، إذ تجاهل هذه النقطة رغم كونها في غاية الأهمية، وصور الأمر وكأن من يعتمد محورية القرآن في فهم المعارف الدينية كالعلامة الطباطبائي قد ألغى السنة تماماً وتمسك بمقولة "حسبنا كتاب الله" مع وجود المعصومين عليهم السلام بجانبه، وهذا بالتأكيد مجاني للصواب.

والأمر الآخر؛ نجد أن الشيخ السند استعمل للإشارة إلى منهج العلامة الطباطبائي مقولة "حسبنا كتاب الله" وهذه المقولة لها جذور تاريخية معروفة، وتحمل في طياتها دلالات سلبية كبيرة جداً لا يُتصور بل ولا يوجد أدنى احتمال أن يكون العلامة الطباطبائي ممن يتحملها ويلتزم بها، وهذا ما دفع الشيخ مصباح اليزدي للقول: "أمّا إذا قلنا: «حسبنا كتاب الله»، وأنزنا نقبل بكلّ ما جاء به القرآن الكريم، ولا نأخذ بأيّ شيء عداه، فإنّه يتحتّم علينا أكل لحم الكلب، والكثير من الأشياء التي تشمئزّ النفوس من ذكرها، والإقرار بحلّيتها وجواز أكلها. فهل أراد العلامة الطباطبائي، إذ أوصى بالاستناد إلى نفس القرآن نبذ هذه الروايات والقرائن كلّها؟ وهل يُحتمل مجرد احتمال أنّه قصد ذلك فعلاً؟! [29]. نترك الإجابة على تساؤلات الشيخ اليزدي للشيخ السند نفسه!

النظريات في دور الروايات في التفسير

لكي يتضح لنا بطلان كلام الشيخ محمد السند في اتهامه لمنهج العلامة الطباطبائي بـ"حسبنا كتاب الله"، فإنه من المهم التطرق بإيجاز للنظريات المختلفة لدور الروايات في العملية التفسيرية، وذلك لتكون لنا كمدخل لمناقشة ما طرحه الشيخ السند، وذلك في الآتي [30]:

النظرية الأولى: وهي النظرية التي لا تعترف بأي دور للنصوص الروائية لفهم القرآن، وربما هم أنفسهم أصحاب شعار: حسبنا كتاب الله.

النظرية الثانية: نظرية محورية السنة، ويُرَاد بها تفسير القرآن بالروايات المأثورة فقط لا غير، ولعل هؤلاء هم الذين أنكروا حجية ظواهر القرآن، واكتفوا بالنصوص الروائية لفهم القرآن وتفسيره.

النظرية الثالثة: نظرية محورية القرآن والسنة معاً، ويُرَاد بها اعتماد القرآن والروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام كمصدرين أساسيين في العملية التفسيرية، على هذا فلا ينحصر دور النصوص الروائية في كونها مؤكدة ومعمقة فحسب، وإنما هي مصدر تفسيري أساسي.

النظرية الرابعة: نظرية محورية القرآن ومدارية السنة، وهي النظرية التي اعتمدها الطباطبائي في تفسيره.

محورية القرآن ومدارية السنة وليس "حسبنا كتاب الله"

إن النظرية التي يعتمدها العلامة الطباطبائي كما مر بنا آنفاً هي نظرية (محورية القرآن ومدارية السنة)، وجعل المحورية للقرآن لا يلغي الرجوع إلى المصادر الأخرى لا سيما الروايات، ولكن الدور الأساسي والمحوري يكون للقرآن والدور الثانوي -إن صح التعبير- يكون للسنة، حيث تمارس السنة دورين مهمين وهما:

أولاً: الدور التوكيدي: بمعنى أن الرواية تؤدي دوراً توكيدياً لما أسسه الفهم القرآني للقرآن.

ثانياً: الدور التعميقي: بمعنى تعميق الفهم القرآني، فالرواية كثيراً ما تُلَفَت النظر التفسيري إلى مراتب معرفية قد يعسر الوصول إليها بدونها" [31].

ولكن هذا الدور التوكيدي والتعميقي لا يخرج الروايات عن دورها المداري، والمدارية في المقام اصطلاح خاص يقع في قبال اصطلاح تأخري تمثل بمجموعها النظريات المعتمدة في القراءة الدليلية للقرآن، وإن من يؤمن بهذا المنهج يعتقد بأن هذه النظرية (محورية القرآن ومدارية السنة الشريفة) هي النظرية الصحيحة في المقام التي تُحفظ بها كرامة القرآن وأهمية السنة ودورها في العملية التفسيرية [32].

من هنا نجد العلامة الطباطبائي يعبر عن القرآن الكريم بعبارة المصدر الأساسي، كما ذكر ذلك في كتابه (الشريعة في الإسلام) بقوله: "يعتبر كتاب الله (القرآن الكريم) هو المصدر الأساسي للفكر الإسلامي، وهو الذي يعطي الاعتبار والحجية للمصادر الدينية الأخرى..." [33].

لذلك نستطيع أن نقول وبكل ثقة أن النظرية التي يتبناها العلامة الطباطبائي ليست كنظرية (حسبنا كتاب الله)، لأنه بحسب هذه النظرية لا يجوز الاستغناء عن السنة كما هي في نظرية (حسبنا كتاب

□)، وإنما يتوجب النظر في الثقليين (الكتاب والسنة)، "ولازم ذلك أنه لا بد في مقام الأخذ من أحدهما ملاحظة الآخر أيضاً، بحيث يلحظ مجموع الكتاب والسنة كأنهما كلام واحد، فكما لا يجوز العمل ببعض القرآن يقطع النظر عن بعض الآخر وبدون التفات إلى مخصصاته ومقيداته في بعض الآخر، ولا يجوز العمل بالسنة يقطع النظر عن القرآن، كذلك لا يجوز العمل بالقرآن يقطع النظر عن السنة"[34].

علماءً بأنه حتى القائلين بالنظرية الأولى التي تؤمن بمقولة (حسبنا كتاب □) والتي لا ترى أي دور للنصوص الروائية الكثير منهم يلتزم بذلك في حال السنة المنقولة والمحكية، وأما في حال السنة الواقعية فلا، لأن بعضهم يؤمن بحجية قول النبي الأكرم صلى □ عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، ولكن لديهم تحفظ لما نقل عنهم من روايات غير موثوقة.

وهناك سؤال وجه للسيد كمال الحيدري حول دور السنة في تفسير الطبائبي، وأجاب عنه بإجابة يمكن أن تلخص الكثير من الكلام التي يُمكن أن يُقال في هذا الصدد، والسؤال هو: ما هو الدور الذي يلعبه التفسير بالمأثور عن النبي صلى □ عليه وآله وسلم وأهل بيته المعصومين عليهم السلام في المنهج التفسيري لصاحب "الميزان"؟ وأجاب بقوله: "الدور نفسه الذي ينهض به العقل في إضاءة الطريق في فهم معارف القرآن، يعطيه السيد الطبائبي للرواية. ولكن ليس للرواية الواحدة أو الروائيتين، بل للاتجاه العام الذي يسود الروايات. فمثلاً عندما يأتي إلى الروايات في مسألة التدبير يجد أنها كلها تتحرك باتجاه واحد يدل على أن □ سبحانه هو المدبر لكل شيء. بيد أن هذا التدبير يتم من خلال نظام الأسباب والوسائط التي تنبسط في عالم الوجود كالملائكة، والأسباب الطبيعية والعلل وهكذا"[35].

ويردف قائلاً: "في ضوء هذا الاتجاه العام الذي تفيده الرواية يفهم دور الإمامة بوصفها جزءاً من نظام الوسائط والأسباب الذي ابتني عليه الوجود. وهكذا بشأن الأمثلة الأخرى، حيث إذا ما رجع الإنسان إلى الروايات ثم جاء إلى القرآن، لأنارت الروايات له الطريق إلى اكتشاف معارف القرآن الكريم..."[36].

مكانة السنة وأدوارها عند العلامة الطبائبي

قد يقول قائل: بأن ما تقدم من شرح يمثل رأي السيد كمال الحيدري ولا يمثل واقع حال منهج العلامة الطبائبي، وذلك لأن كلماته وبالخصوص في مقدمة تفسيره الميزان -كالتالي أوردنا بعضها في السابق- لا تشير إلى أي دور للسنة، ولذا من المهم أن ننقل بعض الموارد التي يتحدث فيها العلامة الطبائبي نفسه عن دور السنة لديه، وذلك حتى نثبت من خلالها بأنه لا يلغي السنة عن الاعتبار ولا يلتزم عملاً بمقولة "حسبنا كتاب □"[37]، وذلك في الآتي:

تحدث العلامة الطباطبائي عن حجية السنة في العديد من الموارد منها ما يلي:

المورد الأول: في قوله تعالى: ((وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّ هُمْ يَتَّقُونَ)) [38]، حيث بين العلامة الطباطبائي حجية بيان النبي وأهل البيت (ع) بقوله: "وفي الآية دلالة على حجية قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في بيان الآيات القرآنية، وأما ما ذكره بعضهم أن ذلك في غير النص والظاهر من المتشابهات أو فيما يرجع إلى أسرار كلام الله وما فيه من التأويل فمما لا ينبغي أن يصغى إليه. هذا في نفس بيانه (صلى الله عليه وآله وسلم) ويلحق به بيان أهل بيته لحديث الثقلين المتواتر وغيره..." [39].

المورد الثاني: في قوله تعالى: ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولِينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)) [40]، حيث يقول: "وتعليم الكتاب بيان ألفاظ آياته وتفسير ما أشكل من ذلك، ويقابله تعليم الحكمة وهي المعارف الحقيقية التي يتضمنها القرآن، والتعبير عن القرآن تارة بالآيات وتارة بالكتاب للدلالة على أنه بكل من هذه العناوين نعمة يمتن بها - كما قيل -" [41]. إلى أن يقول: "فالتعليم القرآني الذي تصداه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم المبين لما نزل من عند الله هو تعليم الحكمة وشأنه بيان ما هو الحق في أصول الاعتقادات الباطلة الخرافية التي دبت في أفهام الناس من تصور عالم الوجود وحقيقة الإنسان الذي هو جزء منه-كما تقدمت الإشارة إليه- وما هو الحق في الاعتقادات الفرعية المترتبة على تلك الأصول مما كان مبدأ للأعمال الإنسانية وعناوين لغاياتها ومقاصدها" [42].

المورد الثالث: في قوله تعالى: ((وَ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)) [43]، والتي جاء سياقها ضمن توزيع (الفيء) على المسلمين إلا أنه أكد على شمولها لكل ما آتاه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، حيث قال: "أي ما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه كما أعطى منه المهاجرين ونفراً من الأنصار، وما نهاكم عنه ومنعكم فانتهاوا ولا تطلبوا، وفيه إشكال بأنهم سألو النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقسم الفيء بينهم جميعاً فأرجعه إلى نبيه وجعل موارد مصروفه ما ذكره في الآية وجعل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن ينفقه فيها على ما يرى. والآية مع الغض عن السياق عامة تشمل كل ما آتاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من حكم فأمر به أو نهى عنه" [44].

المورد الرابع: في قوله تعالى: ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ وَالْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)) [45]، إذ يقول: "الأسوة القدوة وهي الاقتداء والاتباع، وقوله: «في رسول الله» أي في مورد رسول الله والأسوة التي في موردته هي تأسيهم به واتباعهم له والتعبير بقوله: «لقد كان لكم» الدال على الاستقرار والاستمرار في الماضي إشارة إلى كونه تكليفا ثابتاً مستمراً» [46].

المورد الخامس: كذلك أكد العلامة الطباطبائي على حجية السنة في كتابه (الشيعة في الإسلام) جامعاً فيه جميع الموارد السابقة التي ذكرناها من تفسير الميزان، حيث يقول: "... فإن القرآن الكريم والذي يعتبر مصدراً أساسياً للفكر الديني الإسلامي، قد أعطى للسامعين حجية واعتبار طواهر الألفاظ، وهذه الطواهر للآيات قد جعلت أقوال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في المرحلة الثانية بعد القرآن مباشرة، وتعتبر حجة كآيات القرآنية، ويؤيده قوله تعالى: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ). وقوله جل شأنه: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ رَسُولِينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)، وقوله تعالى أيضاً: ((لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ وَالْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)). فإذا لم تكن أقوال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأفعاله وحتى صمته وإقراره. حجة كالقرآن الكريم، لم نجد مفهومًا صحيحًا للآيات المذكورة، لذا فإن أقواله صلى الله عليه وآله وسلم حجة لازمة الأتباع، للذين قد سمعوه صلى الله عليه وآله وسلم، أو قد نقل إليهم عن طريق رواية ثقة، وكذلك ينقل عنه صلى الله عليه وآله وسلم عن طرق متواترة قطعية أن أقوال أهل بيته عليهم السلام كأقواله، وبموجب هذا الحديث والأحاديث النبوية القطعية الأخرى، تصبح أقوال أهل البيت تالية لأقوال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وواجبة الأتباع، وأن أهل البيت لهم المرجعية العلمية في الإسلام والأحكام الإسلامية فأقوالهم حجة يعتمد عليها سواءً كان مشافهة أو نقلًا» [47].

فجميع الموارد السابقة من كلمات العلامة الطباطبائي تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أنه ممن يعتقد بحجية السنة، وهذا لا ينسجم مع اتهامه بالعمل بمقولة "حسبنا كتاب الله" كما هو واضح.

النقطة الثانية: العلامة الطباطبائي والتحذير من التساهل في رد الروايات

إذا كان العلامة الطباطبائي من القائلين بحجية السنة كما أثبتنا ذلك آنفًا، فإنه من الطبيعي أن

يُحذر من التساهل في رد الأحاديث الواردة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام كما في الموردين التاليين:

الأول: في قوله تعالى: ((قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)) [48]، حيث يقول: "أقول: والأخبار في هذه المعاني كثيرة، متظافرة، وأنت إذا أجلت نظرة التأمل والإمكان فيها وجدتها شواهد على ما قدمناه، وسيجيء شطر من الكلام في بعضها. وإياك أن ترمي أمثال هذه الأحاديث الشريفة المأثورة عن معادن العلم ومنايع الحكمة بأنها من اختلاقات المتصوفة وأوهامهم، فللخلفة أسرار، وهو ذا العلماء من طبقات أقوام الإنسان لا يألون جهداً في البحث عن أسرار الطبيعة، منذ أخذ البشر في الانتشار، وكلما لاح لهم معلوم واحد بان لهم مجاهيل كثيرة، وهي عالم الطبيعة أضيق العوالم وأخسها فما ظنك بما ورائها، وهي عوالم النور والسعة" [49].

الثاني: موقفه ممن ينكر (روايات الرجعة)، حيث يقول: "وغير الشيعة وهم عامة المسلمين وإن أذعنوا بظهور المهدي ورووه بطرق متواترة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكنهم أنكروا الرجعة وعدوا القول بها من مختصات الشيعة، وربما لحق بهم في هذه الأعصار بعض المنتسبين إلى الشيعة، وعد ذلك من الدس الذي عمله اليهود وبعض المتظاهرين بالإسلام كعبداً بن سبأ وأصحابه، وبعضهم رام إبطال الرجعة بما زعمه من الدليل العقلي ... " [50]. ثم يقول: "وأما ما ناقشه في كل واحد من الروايات ففيه: أن الروايات متواترة معنى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، حتى عد القول بالرجعة عند المخالفين من مختصات الشيعة وأئمتهم من لدن الصدر الأول، والتواتر لا يبطل بقبول آحاد الروايات للخدشة والمناقشة، على أن عدة من الآيات النازلة فيها، والروايات الواردة فيها تامة الدلالة قابلة الاعتماد ... على أن هذه القضايا التي أخبرنا بها أئمة أهل البيت عليهم السلام من الملاحم المتعلقة بآخر الزمان، وقد أثبتتها النقلة والرواة في كتب محفوظ النسخ عندنا سابقة تأليفاً وكتابة على الوقوع بقرون وأزمنة طويلة نشاهد كل يوم صدق شطر منها من غير زيادة ونقيصة فلنحقق صحة جميعها وصدق جميع مضمونها" [51].

ومن الغريب جداً أن الشيخ محمد السند نفسه الذي يصف منهج العلامة الطباطبائي بأنه عملاً كمنهج "حسبنا كتاب الله"، يستشهد بهذا المورد عندما كان يصد الرد على أطروحات السيد كمال الحيدري حول التراث الروائي، حيث قال: "والحاصل أن رصانة تراث حديث أهل البيت عليهم السلام بلغت درجة يقول صاحب تفسير الميزان عنها في معرض الجواب عن الخدشة في روايات الرجعة: (والتواتر لا يبطل بقبول

آحاد الروايات للخدشة والمناقشة... على ان هذه القضايا التي اخبرنا بها أئمة أهل البيت عليهم السلام من الملاحم المتعلقة بآخر الزمان وقد أثبتتها النقلة والرواة في كتب محفوظة النسخ عندنا سابقة تأليفاً وكتابة على الوقوع بقرون وأزمنة طويلة نشاهد كل يوم صدق شطر منها من غير زيادة ونقيصة فلنحقق صحة جميعها وصدق جميع مضامينها) "[52]. ولا أدري كيف يستشهد الشيخ السند بهذا الكلام للعلامة الطباطبائي للدلالة على أهمية التراث الروائي، وهو ممن يتهم منهجه عملاً بمقولة "حسبنا كتاب الله"!!

النقطة الثالثة: السيد الطباطبائي والأدوار العامة للسنة

بعد أن عرفنا حجية السنة عند العلامة الطباطبائي أولاً، وعرفنا كذلك تحذيره من التساهل في رد السنة ثانياً؛ بقي لنا أن نتعرف على الأدوار التي يمكن أن يُستفاد فيها من السنة لديه، وسيكون في التالي:

أولاً؛ دور السنة في بيان التفاصيل كتفاصيل الأحكام والقصص وغيرها؛ حيث أكد العلامة الطباطبائي في تفسيره الميزان أن الآية الكريمة في قوله تعالى: ((أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا)) [53]: "تدل دلالة واضحة على أن المعارف القرآنية يمكن أن ينالها الباحث بالتدبر والبحث... نعم تفاصيل الأحكام مما لا سبيل إلى تلقيه من غير بيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما أرجعها القرآن إليه في قوله تعالى: ((وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا))، وما في معناه من الآيات، وكذا تفاصيل القصص والمعاد مثلاً" [54].

وكذلك تعرض العلامة الطباطبائي لهذا الأمر في كتابه (الشيعة في الإسلام) بقوله: "يشير القرآن الكريم إلى كليات بعض المعارف الإسلامية وهي الأحكام والقوانين التشريعية، كالصلاة والصوم والمعاملات وسائر العبادات، ويتوقف تفصيلها بالرجوع إلى السنة (حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام). والبعض الآخر كالاقتادات والأخلاق، وإن كانت مضامينها وتفاصيلها يفهمها العامة، لكن إدراك وفهم معانيها، يستلزم اتخاذ نهج أهل البيت عليهم السلام مع الاستعانة بالآيات، فإنها تفسر بعضها بعضاً، ولا يمكن الاستعانة برأي خاص، والذي أصبح من العادات والتقاليد، وباتت النفس تستأنس به." [55].

ثانياً؛ دور السنة في التعليم وذلك بتسهيل الطريق وتقريب المقصد؛ بعد أن أكد العلامة الطباطبائي

على أن تفاصيل الأحكام والقصاص وغيرها تأخذ من بيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم نجاهه يقول: "ومن هنا يظهر أن شأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المقام هو التعليم فحسب، والتعليم إنما هو هداية المعلم الخبير، ذهن المتعلم وإرشاده إلى ما يصعب عليه العلم به والحصول عليه لا يمتنع فهمه من غير تعليم، وإنما التعليم تسهيل للطريق وتقريب للمقصد، لا إيجاد للطريق وخلق للمقصد... وهذا هو الذي يدل عليه أمثال قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) الآية، وقوله تعالى: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)، فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما يعلم الناس ويبين لهم ما يدل عليه القرآن بنفسه، ويبينه الله سبحانه بكلامه، ويمكن للناس الحصول عليه بالآخرة لأنه صلى الله عليه وآله وسلم يبين لهم معاني لا طريق إلى فهمهما من كلام الله تعالى فإن ذلك لا ينطبق البتة على مثل قوله تعالى: (كِتَابٌ نُصِرَ لَكَ آيَاتُهُ فُؤَادًا لِقَوْمٍ يُرِيدُونَ) الآية، وقوله تعالى: (وَهَذَا لِسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) [56].

ويردف قائلاً: "على أن الأخبار المتواترة عنه صلى الله عليه وآله وسلم المتضمنة لوصيته بالتمسك بالقرآن والأخذ به وعرض الروايات المنقولة عنه صلى الله عليه وآله وسلم على كتاب الله لا يستقيم معناها إلا مع كون جميع ما نقل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مما يمكن استفادته من الكتاب، ولو توقف ذلك على بيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان من الدور الباطل وهو ظاهر" [57].

ثالثاً: دور السنة في الهداية إلى أغراض القرآن ومقاصده: وفي ذلك يقول العلامة الطباطبائي تعليفاً على حديث الثقلين: "... والحديث غير مسوق لإبطال حجة ظاهر القرآن وقصر الحجة على ظاهر بيان أهل البيت عليهم السلام، كيف وهو صلى الله عليه وآله وسلم يقول: لن يفترقا، فيجعل الحجة لهما معاً، فللقرآن الدلالة على معانيه والكشف عن المعارف الإلهية، ولأهل البيت الدلالة على الطريق وهداية الناس إلى أغراضه ومقاصده" [58].

رابعاً: دور السنة في التدرب على تفسير القرآن وفهمه: حيث يقول العلامة الطباطبائي: "وقد تبين أن المتعين في التفسير الاستمداد بالقرآن على فهمه وتفسير الآية بالآية وذلك بالتدرب بالآثار المنقولة عن النبي وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم وعليهم تهيئة ذوق مكتسب منها ثم الورد والله الهادي" [59].

وإذا كانت السنة تقوم بكل هذه الأدوار العامة عند العلامة الطباطبائي كبيان التفاصيل للأحكام والقصاص وغيرها، وكذلك التعليم والهداية إلى أغراض القرآن ومقاصده، بل إنه يرى أيضاً أن من خلالها يتم التدرب على تفسير القرآن وفهمه، فهل يا ترى يمكن أن ينسجم منهجه هذا عملاً مع مقولة "حسبنا كتاب

النقطة الرابعة: كيفية استخدام الروايات لدى العلامة الطباطبائي

بعد أن عرفنا بعض الأدوار العامة للسنة في فكر العلامة الطباطبائي، فإنه من المهم الآن أن نتطرق لبعض النماذج التي تبين كيفية استخدامه لبعض الروايات في عملية فهم وتفسير القرآن الكريم، علماً بأنني لن أتطرق لأمثلة ونماذج واضحة كالتي توضح تفاصيل الأحكام مثلاً أو أسباب نزول بعض الآيات أو ما شابهها، وذلك لأنها من الموارد الواضحة التي لا تحتاج إلى بيان وإثبات، وإنما سوف أقف على بعض النماذج الأخرى، وذلك فيما يلي:

أولاً: بيان مصاديق الآيات: كثيراً ما يستعمل العلامة الطباطبائي السنة للوقوف على بعض مصاديق الآيات القرآنية، وهناك العديد من الأمثلة منها:

المثال الأول: في قوله تعالى: ((اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)) [60]، حيث أن العلامة الطباطبائي بعد أن تطرق لبيان المراد من الآية نقل بعض الروايات وعلق عليها، منها الرواية التالية: "في الفقيه، وتفسير العياشي، عن الصادق (عليه السلام) قال: الصراط المستقيم أمير المؤمنين (عليه السلام) ... أقول: وفي هذه المعاني روايات أخر، وهذه الأخبار من قبيل الجري، وعد المصداق للآية، واعلم أن الجري وكثيراً ما نستعمله في هذا الكتاب اصطلاح مأخوذ من قول أئمة أهل البيت (عليهم السلام)" [61]. ففي هذا المثال من الواضح أن الرواية بينت المصداق الأتم والأكمل لهذه الآية، وهو أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام، وإن كان معناها لا ينحصر بهذا المصداق فقط [62].

المثال الثاني: في قوله تعالى: ((إِنزَامًا وَلِيُذَكِّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ رَاكِعُونَ)) [63] يقول العلامة الطباطبائي: "على أن الروايات متكاثرة من طرق الشيعة وأهل السنة على أن الآيتين نزلتان في أمير المؤمنين علي (عليه السلام) لما تصدق بخاتمه وهو في الصلاة، فالآيتان خاصتان غير عامتين... [64]. ففي هذا المثال جاءت الروايات لبيان مصداق خاص ومحصور بأمر المؤمنين عليه السلام لا ينطبق على غيره بخلاف المثال الأول الذي أوضح المصداق الأتم والأكمل.

ثانياً: بيان الآيات الناسخة والمنسوخة في الأحاديث:

كما في قوله تعالى: ((وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ فَأَدُوهُمْ مَا فِي الْإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ)) [65]، حيث يقول العلامة الطباطبائي: "في الصافي عن تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ فَأَدُوهُمْ مَا فِي الْإِن تَابَا) الآية هي منسوخة، والسبيل هي الحدود. وفيه عن الباقر عليه السلام سئل عن هذه الآية فقال: هي منسوخة، قيل: كيف كانت؟ قال: كانت المرأة إذا فجرت فقام عليها أربعة شهود ادخلت بيتاً ولم تحدث، ولم تكلم، ولم تجالس، وأوتيت بطعامها وشرابها حتى تموت أو يجعل الله لها سبيلاً، قال: جعل السبيل الجلد والرجم. قيل: قوله: والذان يأتياها منكم؟ قال: يعني البكر إذا أتت الفاحشة التي آتتها هذه الثيب، فأدوهما؟ قال تحبس. الحديث". وبعدها يردف بقوله: "أقول: القصة أعنى كون الحكم المجري عليهن في صدر الإسلام الإمساك في البيوت حتى الوفاة مما رويت بعدة من طرق أهل السنة عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم، ونقل عن السدي أن الحبس في البيوت كان حكماً للثيبات، والإيداء الواقع في الآية الثانية كان حكماً للجواري والفتيان الذين لم ينكحوا، وقد عرفت ما ينبغي أن يقال في المقام" [66].

ثالثاً: بيان تأويل الآيات:

مثال ذلك في قوله تعالى: ((مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِرِغْيَةٍ زَفْسِرٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)) [67]، حيث يقول العلامة الطباطبائي: "وفي الكافي، بإسناده عن فضيل بن يسار قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام) قول الله عز وجل في كتابه: « وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا » قال: من حرق أو غرق قلت: من أخرجها من ضلال إلى هدى؟ قال: ذلك تأويلها الأعظم؛ أقول: ورواه الشيخ في أماليه والبرقي في المحاسن، عن فضيل عنه (عليه السلام)، وروي الحديث عن سماعة وحرمان عن أبي عبد الله (عليه السلام). والمراد بكون الإنقاذ من الضلالة تأويلاً أعظم للآية كونه تفسيراً أدق لها، والتأويل كثيراً ما كان يستعمل في صدر الإسلام مرادفاً للتفسير... [68].

ثالثاً: (بيان شمول ما ورد في القرآن لموارد أخرى لم تبينها الآيات)

في قوله تعالى: ((وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنَّكُمْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا)) [69]، حيث بين العلامة الطباطبائي أن السنة بينت شمول القصر في الصلاة في غير موارد الخوف كما تفيد الآية، حيث يقول: "والجملة قيد لقوله (فلا جناح عليكم)، وتفيد ان بدء تشريع القصر في الصلاة إنما كان عند خوف الفتنة، ولا ينافي ذلك أن يعم التشريع ثانياً

جميع صور السفر الشرعي وإن لم يجمع الخوف فإنما الكتاب بين قسماً منه، والسنة بينت شموله لجميع الصور كما سيأتي في الروايات" [70].

النقطة الخامسة: العلامة الطباطبائي والأحاديث الضعيفة

يعتقد العديد من العلماء على كون خبر الواحد حجة في التفسير، ومن هؤلاء السيد الخوئي حيث ذكر في البيان: "نعم يعتبر في الخبر الموثوق به، وفي غيره من الطرق المعتبرة أن يكون جامعاً لشرائط الحجية، ومنها أن لا يكون الخبر مقطوع الكذب، فإن مقطوع الكذب لا يعقل أن يشمل دليل الحجية والتعبد، وعلى ذلك فالأخبار التي تكوون مخالفة للاجماع، أو للسنة القطعية، أو الكتاب، أو الحكم العقلي الصحيح لا تكون حجة قطعاً، وإن استجمعت بقية الشرائط المعتبرة في الحجية. ولا فرق في ذلك بين الأخبار المتكفلة لبيان الحكم الشرعي وغيرها" [71]. وأما السيد الطباطبائي فإنه يرى خلاف ذلك، إذ لا يعول على خبر الواحد الظني في التفسير والعقائد [72]، ولكن هذا لا يعني بأنه لا يستفيد من أخبار الآحاد في التفسير، بل إنه يستفيد حتى من أخبار الآحاد الضعيفة في بعض المجالات كتأييد المعاني المستنبطة من الآيات إن وافقتها، وكشاهد على المعنى اللغوي أيضاً، وفيما يلي بيان ذلك [73]:

المورد الأول: (مؤيدة للمستنبط من الآيات): يقول العلامة الطباطبائي حول قوله تعالى: ((كُلِّمَتْ مَارِيَةَ إِذْ خَلَتْ أَعْلَانِيَّتَهُمَا زَكَرِيَّا - وَالْمُحْرَبَاتِ وَجَدَ - عِنْدَهَا رِزْقًا)) [74] بعد أن نقل روايات متعددة من تفسير القمي والعياشي يدل مضمونها على نزول الوحي على عمران ووجود الفاكهة في محراب مريم في غير وقتها: "وبعض المفسرين شدد النكير على ما تضمنته هذه الروايات كالوحي إلى عمران ووجود الفاكهة في محراب مريم في غير وقتها، وكون سؤال زكريا للآية للتمييز فقال: إن هذه أمور لا طريق إلى إثباتها فلا هو سبحانه ذكرها، ولا رسوله قالها، ولا هي مما يعرف بالرأي ولم يثبتها تاريخ يعتقد به، وليس هناك إلا روايات إسرائيلية وغير إسرائيلية، ولا موجب للتكلف في تحصيل معنى القرآن وحمله على أمثال هذه الوجوه البعيدة عن الأفهام. وهو منه كلام من غير حجة، والروايات وإن كانت آحاداً غير خالية عن ضعف الطريق لا يجب على الباحث الأخذ بها، والاحتجاج بما فيها لكن التدبر في الآيات يقرب الذهن منها، والذي نقل منها عن أئمة أهل البيت عليهم السلام لا يشتمل على أمر غير جائز عند العقل" [75].

المورد الثاني: (الاستفادة من الروايات كشاهد على المعنى اللغوي): كما في سورة الحمد في قوله تعالى: ((الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)) [76]، حيث يقول العلامة الطباطبائي: "وفي الكافي والتوحيد

والمعاني وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في حديث: وإله كل شيء، الرحمن بجميع خلقه، الرحيم بالمؤمنين خاصة. وروي عن الصادق عليه السلام: الرحمن اسم خاص بصفة عامة والرحيم اسم عام بصفة خاصة. أقول: قد ظهر مما مر وجه عموم الرحمن للمؤمن والكافر واختصاص الرحيم بالمؤمن، وأما كون الرحمن اسماً خاصاً بصفة عامة والرحيم اسماً عاماً بصفة خاصة فكأنه يريد به أن الرحمن خاص بالدنيا ويعم الكافر والمؤمن والرحيم عام للدنيا والآخرة ويخص المؤمنين، وبعبارة أخرى: الرحمن يختص بالإفاضة التكوينية التي يعم المؤمن والكافر، والرحيم يعم التكوين والتشريع الذي بابه باب الهداية والسعادة، ويختص بالمؤمنين لأن الثبات والبقاء يختص بالنعم التي تفاض عليهم والعاقبة للتعاقب [77].

ويعلق صاحب كتاب (مناهج التفسير واتجاهاته) على ذلك بقوله: أن العلامة الطباطبائي استخرج بعض النقاط الدقيقة من الروايات بواسطة المعنى اللغوي والصفة المشبهة وصيغة المبالغة لها، ثم أتى بهذه الروايات كمؤيد وشاهد، وهذا هو أحد ابداعات العلامة في التعامل مع الروايات التفسيرية والذي يعطي نتيجتين هما:

إحياء الروايات التفسيرية التي تتسم بضعف السند.

دعم أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) بالقرآن لكي تكون مقبولة عند جميع المسلمين [78].

وإذا كانت هذه طريقة العلامة الطباطبائي في التعامل مع الروايات الضعيفة فضلاً عن غيرها، فهل يُعقل أنه يلغي جميع الروايات بما فيها الروايات الصحيحة والمتواترة ويؤمن عملاً بمقولة "حسبنا كتاب القرآن"؟!

النقطة السادسة: نقد العلامة الطباطبائي عند الدكتور الشتيوي

حاول الدكتور أشرف فوزي الشتيوي في كتابه (منهج الشيعة الإثني عشرية في تفسير القرآن الكريم وعلومه عرض ونقد) نقد منهج العلامة الطباطبائي بسبب إيراده واعتماده على بعض الروايات في ثنايا تفسيره في المبحث الروائي، وسوف أنقل لكم فيما يلي بعضاً مما أورد الدكتور الشتيوي وكان محط لنقده، علماً بأنني لن أخوض وأناقش ما ذكره من نقد رغم العديد من الملاحظات التي سجلتها

عليه [79]، وذلك لأن هدفه هو أن يأخذ القارئ فكرة عن تعرض العلامة الطباطبائي للنقد نتيجة لتمسكه ببعض الروايات، وهذا مما يُدلل على كون العلامة الطباطبائي ليس ممن يتبع عملاً منهج "حسبنا كتاب" ، وسيكون ذلك في التالي [80]:

أولاً: الاعتقاد بأن القرآن ليس حجة إلا بقيم: وهنا نقل عدة مطالب عن العلامة الطباطبائي وهي:

الأول: في قوله تعالى: (وَآتَى بَعُوًّا النَّوْرَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ). قال الطباطبائي: "روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: أي الخلق أعجب إيماناً؟ فقالوا الملائكة، فقال: الملائكة عند ربهم فما لهم لا يؤمنون؟ فقالوا: نحن فقال أنا فيكم فما لكم لا تؤمنون؟ إنما هم قوم يكونون بعدكم فيجدون كتاباً في ورق فيؤمنون بهن وهذا معنى قوله: (واتبوا النور الذي أنزل معه أولئك المفلحون). والخبر لا بأس به، وهو من الجري والانطباق، وفي بعض الروايات أن النور هو علي -علي السلام- وهو أيضاً من قبيل الجري أو الباطن".

الثاني: في قوله تعالى: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلَا تَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) يونس/85 قال الطباطبائي: "فضل الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ورحمته علي بن أبي طالب عليه السلام وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم نعمة أنعم الله بها على العالمين بما جاء به من الرسالة ومواد الهداية، وعلي عليه السلام هو أول فاتح لباب الولاية".

الثالث: في قوله تعالى: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) العنكبوت/49. قال الطباطبائي: "هم الأئمة. وهذا المعنى مروى في الكافي وفي بصائر الدرجات بعدة طرق.. وفي البصائر بإسناده عن بريد بن معاوية عن أبي جعفر -عليه السلام- قال: قلت له: بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم فقال: أنتم هم من عسى أن يكونوا؟".

الرابع: اعتقاده أن القرآن يهدي للولاية، ففي قوله تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلِذِي يَهْدِيهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) الإسراء/4 قال الطباطبائي: "نقلًا عن العياشي بسنده إلى أبي جعفر -عليه السلام- إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم. قال: يهدي إلى الولاية. ثم قال الطباطبائي: وهي من الجري ويمكن أن يرد به ما عند الإمام من كمال معارف الدين ولعله المراد مما في بعض الروايات من قوله: يهدي إلى الإمام".

الخامس: في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ

عَمْرَانِ عِلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (آل عمران/34-33. قال الطباطبائي نقلاً عن العياشي عن الباقر -عليه السلام- أنه تلا هذه الآية فقال: نحن منهم ونحن بقية تلك العترة... [81].

ثانياً: تفسير القرآن بأقوال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم

ينقل الدكتور الشتيوى عن العلامة الطباطبائي قوله: "قال الطباطبائي في مقدمة تفسيره: "ثم وضعنا في ذيل البيانات متفرقات من أبحاث روائية نورد فيها ما يتسم لنا إيرادها من الروايات المنقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأئمة أهل البيت -سلام الله عليهم أجمعين- من طرق العامة والخاصة، وأما الروايات الواردة عن مفسري الصحابة والتابعين، فإننا على ما فيها من الخلط والتناقض لا حجة فيها على مسلم"، بعدها يعدد الدكتور الشتيوى بعض الموارد كالتالي:

الأول: في قوله تعالى: (هُمُ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ) آل عمران/63، قال الطباطبائي: عن الصادق -عليه السلام- الذين اتبعوا رضوان الله هم الأئمة، وهم والله درجات عند الله للمؤمنين، وبولايتهم ومودتهم إيانا يضاعف الله لهم أعمالهم، ويرفع الله لهم الدرجات العلى، والذين باؤوا بسخط من الله، هم الذين جحدوا حق علي وحق الأئمة من أهل البيت، فباؤوا لذلك بسخط من الله.

الثاني: في قوله تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بلْ أحياءٌ عند ربهم يُرزقون) آل عمران/169. فقال أيضاً عن الصادق -عليه السلام- هم والله شيعتنا حين صارت أرواحهم في الجنة، واستقبلوا الكرامة من الله عز وجل، علموا واستيقنوا أنهم كانوا على الحق وعلى دين الله عز وجل.

الثالث: في قوله تعالى: (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّبِيَّ عِلمًا مِمَّا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) النساء/54. نقل الطباطبائي عن الكافي بإسناده إلى الباقر -عليه السلام- قال: نحن الناس المحسودون، الحديث. ثم عقب الطباطبائي بقوله: وهذا المعنى مروى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام مستفيضاً. بطرق كثيرة مودعة في جوامع الشيعة كالکافي، والتهذيب، والمعاني، والبصائر، وتفسيري القمي والعياشي وغيرها [82].

ثالثاً: تفسير القرآن بأقوال الأئمة عليهم السلام: وحول ذلك ينقل الدكتور الشتيوى المطالب التالية:

قد يتساءل البعض فائلاً: كيف نجمع بين كلام العلامة الطباطبائي والذي يدل على كونه يرى أنه يجب الاكتفاء بالقرآن فقط في فهم وتفسير القرآن، وبين كلامه الآخر الذي يؤكد فيه على حجية السنة وأدوارها المتعددة؟! ألا يعطي هذا المبرر لبعض نقاده كالشيخ محمد السند عندما وصف منهجه بأنه عملاً كمنهج "حسبنا كتاب الله"؟!

بالتأكيد أن ظاهر كلام العلامة الطباطبائي الذي أوردناه في بداية البحث يدل على عدم حاجة تفسير القرآن الكريم للروايات، بل عدم جواز ذلك، ولكننا عندما راجعنا كلماته في موارد أخرى، وبالخصوص في الآية 44 من سورة النحل اتضح لنا أنه يعتبر بيان النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليهم السلام) حجة أيضاً، ولذا فإن ظاهر كلامه في بعض الموارد التي ذكرناها لا يكشف عن مقصوده بصورة مطلقة، لأنه "لا يمكن الأخذ بالظهور الابتدائي لكلام العلامة الطباطبائي في ذيل الآية السابعة من سورة آل عمران [85]، ولا يعني كلامه إبعاد الأحاديث والقرائن النقلية بصورة كلية عن ساحة التفسير؛ لأنه قيد الكلام، ووضح المراد منه في الآية 44 من سورة النحل" [86]، وكذلك في موارد أخرى كالتي ذكرناها آنفاً.

وقد ذكر أحد تلامذته البارزين، وهو الشيخ عبداً الجواد آمل تفسيراً بالنسبة إلى استقلال القرآن الكريم لدى العلامة الطباطبائي يمكن اعتباره توضيحاً جيداً لكلامه، وهو كالتالي [87]:

أولاً: إن الثقلين لا يمكن أن يفترقا عن بعضهما البعض، بل هما متلازمان ويشكلان حجة إلهية واحدة، غاية ما هناك أن أحدهما يعتبر أصلاً والآخر فرعاً لذلك الأصل، أو أن أحدهما نصاً والآخر شرحاً له. فالقرآن والعترة لا يفترقان كما أنهما ليسا متعارضان، فرسالة الدين النهائية ترتبط بالقرآن والسنة.

ثانياً: إن القرآن الكريم لا يحتاج إلى الغير في سنده ولا في طواهره ولا في رسم الخطوط الكلية للدين، وهو مستقل حدوثاً وبقاءً، فهو الثقل الأكبر إلى الأحاديث التابعة إلى القرآن حدوثاً وبقاءً، لأن المراد من الاستقلال هو الاستقلال النسبي وليس الاستقلال النفسي. ومن هنا فإن الاعتماد على الأصول العقلانية في فهم معاني وألفاظ القرآن لا ينافي استقلاله في الحجية والدلالة.

ثالثاً: ارتباط الروايات بالقرآن من حيث اعتبار السند، سواء كان ذلك في السنة القطعية، وأيضاً من ناحية حجية النص في خصوص السنة غير القطعية. ولكن بعد تأمين أصل اعتبار السنة بواسطة القرآن، فسوف تكون حجة مستقلة غير منحصرة شأنها شأن القرآن. فالقرآن مستقل في جميع شؤونه وغير مرتبط

بالغير، ولكن لأن الدين يرتبط بالقرآن وسنة المعصومين (عليهم السلام) في عرض رسالته النهائية، ومن هذا الجانب فإن القرآن والسنة لا يمكن أن يفترقا في بيان مفاهيم الدين في الاعتقاد والعمل، بمعنى أن القرآن يتكفل بتبيين الخطوط الكلية للدين، وتتعهد السنة ببيان التفصيلات وجزئيات الأحكام [88].

ولذلك كله نستغرب كثيراً من اتهام منهج العلامة الطباطبائي بالعمل بمقولة "حسبنا كتاب الله"، وذلك لأن العلامة الطباطبائي كما مر بنا يؤكد على حجية السنة وأهميتها وأدوارها المتعددة!! علماً بأنه حتى من أطلق هذه الكلمة "حسبنا كتاب الله" قد أخذ بالسنة في حياته ولم يلغها تماماً، فكيف يُتصور ذلك من العلامة الطباطبائي؟! ولقد بين الشيخ حيدر حب الله ذلك بقوله: "أمّا شعار (حسبنا كتاب الله) فلا يرى فيه كثير من أنّه يراد منه ترك السنّة، بقدر ما يعبر عن حالة خاصّة وواقعة جزئية، وإلا فإنّ من أطلق هذه الكلمة قد أخذ بالسنّة في حياته مراراً، كما تفيد الشواهد التاريخية والحديثيّة" [89].

اعتراف مهم للشيخ محمد السند

بعد كل ما نقلناه من كلام للعلامة الطباطبائي حول حجية وأهمية وأدوار الروايات في منهجه، لعل البعض يتفاجأ متسائلاً: هل يُعقل أن يكون الشيخ السند جاهل بمنهج العلامة الطباطبائي لهذا الحد؟!

وللإجابة على هذا السؤال أقول: لا أعتقد بأن الشيخ السند يجهل ذلك، بل إنني أقطع بعلمه به، والدليل على ذلك أنه ذكر موقف العلامة الطباطبائي ممن ينكر روايات الرجعة كما مر بنا سابقاً هذا أولاً، والأمر الآخر أنني وجدت من خلال بحثي في كتبه ما يُشير إلى معرفته بهذا الأمر، ففي كتابه (الإمامية الإلهية) تحدث عن منهج العلامة الطباطبائي تحت عنوان (تفسير القرآن بالقرآن) بقوله: "أما العلامة الطباطبائي فإنه يرى أن القرآن فيه بيان كل شيء، وفي تفسير كل آية يجب الرجوع إلى الآيات الأخرى التي توضح المراد والمقصود..." [90].

وبعد ذلك وتحت عنوان (تقييم نظرية العلامة) يقول: "إن أصل ما ذكره العلامة متين ونوافقه عليه، لكن النتائج التي رتبها على ذلك من استقلال الإنسان في تفسير القرآن بالقرآن بعد معرفة طريقة أهل البيت هذا غير صحيح، حتى أنه رضوان الله عليه لم يتبع ذلك في تفسيره [91].

فلاحظوا أن الشيخ السند قد اعترف هنا ضمناً بأن العلامة الطباطبائي لم يلغ السنة في تفسيره، لأنه ذكر أنه لم يلتزم بتفسير القرآن بالقرآن فقط، ومعنى ذلك أنه لا يتفق عملاً مع مقولة "حسبنا كتاب

□"، وهذا مما يُدلل على كون الشيخ السند يعلم بهذه الحقيقة عن العلامة الطباطبائي ويعرفها أتم المعرفة، ولكنه للأسف الشديد تجاهلها وبقي يرددها ويتهمه بها في أكثر من مورد وموطن.

كلمة الختام

تناولنا في هذا الموضوع بتحليل ونقد دعوى الشيخ محمد السند القائلة بكون منهج العلامة الطباطبائي ينسجم عملاً مع مقولة "حسبنا كتاب □"، وأثبتنا بطلانها للآتي:

أن العلامة الطباطبائي يتبنى نظرية (محورية القرآن ومدارية السنة) وليس "حسبنا كتاب □"، وهذه النظرية لا تُلغي الرجوع إلى الروايات، وإنما تجعل الدور الأساسي والمحوري للقرآن الكريم، وأما بالنسبة للروايات في هذا المنهج فتؤدي دورين مهمين: الأول: توكيد ما أسسه الفهم القرآني. والثاني: تعميق الفهم القرآني من خلال ما تُلفت إليه الروايات من مراتب معرفية قد يصعب الوصول إليها.

أنا أثبتنا من كلمات العلامة الطباطبائي نفسه أنه يرى حجية السنة ويستدل عليها ببعض الآيات منها: قوله تعالى: (وَإِنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)، وقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)، وقوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا).

نقلنا تحذير العلامة الطباطبائي من التساهل في رد الروايات لعدم تعقلها، حيث ذكرنا مثالين لذلك: الأول: في بحث الآية: (قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ...)، والثاني حول روايات الرجعة.

ذكرنا ما يراه العلامة الطباطبائي من أدوار مهمة للسنّة منها: في بيان التفاصيل كتفاصيل الأحكام والقصص وغيرها، وفي التعليم بتسهيل الطريق وتقريب المقصد، وفي الهداية إلى أغراض القرآن ومقاصده، وفي التدريب على تفسير القرآن وفهمه.

شرحنا كيفية استخدام العلامة الطباطبائي للروايات عملياً في تفسيره، وذلك بذكر عدة نماذج منها:

في بيان مصاديق الآيات، في بيان الآيات الناسخة من المنسوخة، في بيان تأويل الآيات، في بيان شمول ما ورد في القرآن لموارد أخرى لم تبينها الآيات.

بيننا كيف يستفيد العلامة الطباطبائي من الأحاديث الضعيفة في بعض المجالات منها: كمؤيد للمعاني المستنبطة من الآيات إن وافقتها، وكشاهد على المعنى اللغوي.

تطرقنا لتعرض العلامة الطباطبائي للنقد من قبل الدكتور الشتيوى بسبب استشهاده ببعض الروايات في بعض الموارد منها: حول الاعتقاد بأن القرآن ليس حجة إلا بقيم، وتفسيره للقرآن بأقوال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك تفسيره للقرآن بأقوال الأئمة عليهم السلام.

فكل هذه الأمور التي وقفنا عليها بشيء من التفصيل تبين بطلان كلام الشيخ محمد السند، وبالإضافة إلى ذلك استشهدت أيضاً ببعض عبارات الشيخ السند نفسه في أحد كتبه، حيث بين فيها ضمناً أن العلامة الطباطبائي لم يُسقط السنة عن الاعتبار ولم يتمسك عملاً بمنهج "حسبنا كتاب الله" كما ادعى ذلك في موارد أخرى.

[البحث كاملاً تجدده هنا](#)